دور الأساليب والرّوابط اللّغوية في العمليّة الحجاجيّة من خلال "البيان والتبيين" الجاحظ

أ. بن اعراب زهرة
المركز الجامعي البويرة

1-**المقدّمة:** بعد فترة من الفتور في دراسة البلاغة عادت عودة قويّة تحت تسميّة: "البلاغة الجديدة"، وقد ركّزت اهتمامها على جانبين، الأوّل هو البيان وبخاصّة الاستعارة، والآخر هو الحجاج باعتباره ركيزة أساسيّة من ركائز الإقناع. والتعريف الذّي يتداوله الدّارسون للحجاج هو تعريف وظيفيّ أورده جون ميشال أدمJ.M. Adam في كتابه:Les textes types et prototypes وفي قوله: "الخطاب الحجاجي موجّه للتأثير على سلوكات المخاطب أو المستمع وذلك بجعل أيّ قول مدعّم صالحا أو مقبولا (النتيجة) وذلك بمختلف الوسائل بالنّظر إلى قول آخر (الحجّة- المعطاة-الأسباب). نقول على سبيل التّعريف إنّ المعطاة -الحجّة تهدف إلى إثبات أو نقض قضيّة"[1]

وتعمل اللّسانيات النّصيّة على تصنيف النّصوص وتحليلها، ويعدّ النّص الحجاجي واحدا من أنماط النصوص له مميّزاته الخّاصّة سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون.

كما تتوفّر التطبيقات على نصوص مختلفة وإن كان معظمها باللّغات الأجنبيّة، وتبقى العربية فقيرة في هذا المجال رغم كثرة وتنوّع نصوصها. وغرضنا كشف الدّور الذّي تؤدّيه بعض الأساليب والرّوابط في الحجاج من خلال "البيان والتبيين" للجاحظ. علما أننا سنكتفي بعرض بعض النماذج.

2- دور الرّوابط والأساليب اللّغويّة في الحجاج: يعدّ صدور مؤلّف ديكرو Ducrot بمعيّة أنسكومبر Anscombre: "الحجاج في اللّغة" L'argumentation dans la langue من أهمّ المنعرجات في مسار الدراسات حول الحجاج، إذ يرى الباحثان أنّ اللّغة تحقق أعمالا لغوية وليست وصفا لحالة الأشياء في الكون. ثمّ إنّ "الوظيفة الحجاجية هي

الوظيفة الأساسية للّغة"[2] يقول ديكرو مبرزا أهمية البنية اللّغوية في الحجاج: "التسلسلات الحجاجية الممكنة في خطاب ما مرتبطة بالبنية اللّغوية للملفوظات وليس بالمعلومات التي تحويها فحسب"[3] و"القيمة الحجاجية لملفوظ ما ليست نتيجة المعلومات التي يحملها، وإنّما الجملة يمكن أن تحتوي تعابيرا ومورفيمات وصيغا مختلفة."[4]

لذا يعرّف ديكرو الحجاج بقوله: "يكون المتكلّم في حالة حجاج عندما يقدم الملفوظ ق1 (أو مجموعة من الملفوظات) من أجل الإقناع بملفوظ آخر ق2 (أو مجموعة من الملفوظات). حتى يكون الملفوظ ق1 حجّة في صالح الملفوظ ق2 لا يكفي أن يعطينا أسبابا لتقبّل ق2، وإنّما حتى البنية اللّغوية ينبغي أن تتوفر فيها بعض الشروط ..."[5] فالحجاج: "علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجّة، ولكنّ هذا العمل محكوم بقيود لغويّة فلا بدّ من أن تتوفّر في الحجّة ق1 شروط محدّدة حتّى تؤدي إلى ق2"[6].

ممّا تقدّم نستنتج أنّ المكوّنات اللّغويّة من أدوات وأساليب تلعب دورا حجاجيا كبيرا، وقد قسّم ديكرو هذه المكوّنات إلى نوعين هما:

-**النوع الأوّل**: ويسمّيه **روابط حجاجية**: و"الرابطة كلمة تستعمل للربط والتوجيه، وهي تبيّن المعلومات والحجج التي يحويها نص ما، وتجعل المعلومة المحتواة في النص في خدمة المقصد الحجاجي له"[7]، فالمقصود بالروابط الحجاجية إذا هو ما يربط بين الأقوال من عناصر نحوية مثل أدوات الاستئناف كالواو والفاء ولكن وإذن. من الروابط الحجاجية: "**لأنّ**" التي تعرّف على اعتبار كونها تقدم الحجّة، و"إذن" التي تقدّم النتيجة وأخرى مثل: "لكنّ"، وكلّها تحدّد المسار الذي سوف يتّخذه الخطاب أو بالأحرى دلالته.

-**النوع الثاني**: ويسمّيه **عوامل حجاجية** ويقصد بها ما يكون داخل القول الواحد من عناصر تدخل على الإسناد مثل الحصر والنفي، أو مكوّنات معجمية ذات إحالة غير مباشرة في الغالب من ذلك: "منذ" التي تفيد الظرفية، و"تقريبا"، و"على الأقّل"...

وتتعامل الروابط والعوامل الحجاجية فيما بينها "أحيانا على صور شتّى في الأقوال ممّا يتطلّب أحيانا النظر في الوجوه والفروق للوقوف على أيّها أقوى حجاجيا أو ما يتولّد عن تعاملها من فروق حجاجية"[8].

وسنعمل من خلال عرض بعض النماذج من البيان والتبيين على كشف بعض هذه الأدوار فيه.

3- البيان والتبيين خطاب حجاجيّ: قبل أن نبحث عن دور الأدوات اللّغوية في الحجاج في "البيان والتبيين" نحاول أن نبيّن سبب اعتباره خطابا حجاجيا. إنّ كتاب "البيان والتبيين" من أهم مؤلفات الجاحظ وأضخمها، وهو يعالج موضوعا أدبيا، إذ يحاول فيه الجاحظ وضع أسس علم البيان وفلسفة اللّغة، ويتضمن الكتاب مواضيع مختلفة في البلاغة والدين والصراع العقائدي والكلام، وفيه الكثير من المنتخبات الأدبية من خطب ورسائل وأحاديث وأشعار.

وقد جاء كتاب "البيان والتبيين" استجابة لاهتمام العرب البالغ في ذلك العصر بصناعة الكلام الذي كان يعدّ الوسيلة الوحيدة لنشر المبادئ السياسية والعقائد الدينية، في وقت كثرت فيه النحل والملل، واشتد فيه الصراع بين زعمائها وأتباعها، وكان التباري بينهم يتمّ بالمناظرات والخطب فلم يكن بذلك بدّ من وضع أصول للخطابة والمناظرة تكون مرجعا للمحتاج.

وكتاب البيان والتبيين يعدّ خطابا حجاجيا ذلك أنّ السبب وراء كتابته هو دحض حجج الشعوبية التي طعنت في ملكة العرب الخطابية، والغاية منه إثبات ما للعرب من فصاحة وبيان، بتقديم كلّ الحجج التي تدعّم هذا الزعم.

فيقدّم الجاحظ بذلك فكرة أساسيّة هي: تفوّق الجنس العربي -الذي أيّده الله بمعجزة القرآن- في قضية البيان على بقيّة الأجناس الأخرى، هذا التفوّق لم يكن ليقبله ويقتنع به كلّ الناس، بمعنى أنّ حجج الجاحظ -في عصره وفي غير عصره- قد يقتنع بها البعض(المنحازون للجنس العربي) بدرجات متفاوتة، وقد يرفضها البعض الآخر(المنحازون للشعوبية) بدرجات متفاوتة أيضا، ولهؤلاء حججهم التي تؤيد زعمهم "وهذا سمة أساسية من سمات الخطاب الحجاجي"[9] أي مسألة أن يكون هناك مؤيدين ومعارضين لادعاءات الجاحظ وبدرجات مختلفة.

4- توظيف الجاحظ أساليب اللّغة وأدواتها في الحجاج: استعان الجاحظ في تقديم حججه بعدّة أدوات وصيغ لغوية منها: الاستفهام البلاغي وأسلوب القصر، وأسلوب

الشرط، وأسلوب النفي، ولمّا، ولأنّ، وقد، ولكنّ، ... ولمّا كان المقام ضيّقا سنذكر بعض النماذج المتفرّقة فحسب.

1-**الاستفهام البلاغي:** "إنّ لاعتماد الاستفهام في العملية الحجاجية دورا كبيرا نظرا لما يعمله من جلب القارئ أو المستمع في عملية الاستدلال، بحيث إنّه يشركه بحكم قوّة الاستفهام وخصائصه"[10] سنعرض فيما يأتي بعض الأمثلة المتفرّقة عنه:

المثال الأوّل: يرى الجاحظ الكلام أنفع من الصّمت وقد قدّم في كتابه حجج الفريق الذّي يحبّذ الصّمت وحجج الفريق الذّي يحبّذ الكلام، وختم حجاجه بإبداء رأيه هو قائلا: " ... وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل، ونفعه لا يكاد يتجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعمّ ويخصّ، والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة، وطول الصّمت يفسد اللّسان؟ [11]

قدّم في أسلوب الاستفهام هذا **حججا** عدّة هي :

* نفع الصمت لا يكاد يتجاوز رأس صاحبه، بينما نفع الكلام يشمل الخاص والعام، أي الشخص وغيره.

* الرواة لم ترو صمت الصامتين بل كلام الناطقين.

*أرسل الله أنبياءه عليهم السلام بالكلام لا بالصمت.

* مواضع الكلام المحمودة كثيرة، أمّا مواضع الصمت المحمودة فقليلة.

* طول الصمت يفسد اللسان.

ليصل إلى **نتيجة** أو يقنعنا بفكرة هي: أنّ الكلام خير من الصمت.

وقد وفّق الجاحظ في جعل استفهاماته تؤدّي الدّور المنتظر منها وهو ؟ إشراك القارئ في العمليّة الحجاجيّة بجعله طرفا فيها، حيث إنّ معظم استفهاماته تبدأ بقوله: ألا ترى؟ موجّها الخطاب بذلك مباشرة ؟ إلى القارئ.

المثال الثاني: قال الجاحظ في معرض الحديث عن عصا موسى عليه السلام: "وقد جمع الله لموسى بن عمران عليه السلام في عصاه من البرهانات العظام، والعلامات الجسام، ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدّة من المرسلين، وجماعة

من النبيين...وقال الله عزّ وجلّ: (قالوا يا موسى إمّا أن تلقي وإمّا أن نكون نحن الملقين قال ألقوا فلمّا ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون). ألا ترى أنّهم لمّا سحروا أعين الناس واسترهبوهم بالعصي والحبال، لم يجعل الله للحبال من فضيلة في إعطاء البرهان ما جعل للعصا، وقدرة الله على تصريف الحبال في الوجوه كقدرته على تصريف العصا؟ "[12]

جاء هذا الحديث في تعظيم شأن العصا، ويمكن أن نقرأ الاستفهام السابق كما يأتي:

المعطاة: فشل السحرة فيما أقدموا عليه من سحر النّاس بحبالهم، ووفّق موسى عليه السلام بعصاه، ممّا يثبت فضل العصا.

الحجة: قدرة الله على تصريف الحبال بوجوه مختلفة وعلى منحها برهانات قاطعة تضاهي قدرته بشأن العصا، ولكنّه لم يمنح حبال السحرة ما منحه عصا موسى.

النتيجة: العصا مباركة ولها فضل عظيم لذلك منحها الله برهانات صادقة.

2-**أسلوب الشرط:** وقد اعتمد فيه الجاحظ أدوات مختلفة منها: لو، لولا، إذا، متى، لمّا... سنكتفي بذكر نموذجين:

المثال الأوّل: قال الجاحظ في باب الحديث عن بلاغة الرسول -ص- والردّ على من شكك فيها وفهم خطأ الحديث السابق الذكر: "فإذا رأت مكانه الشعراء، وفهمته الخطباء ومن قد تعبّد للمعاني، وتعوّد نظمها وتنضيدها، وتأليفها وتنسيقها، واستخراجها من مدافنها، وإثارتها من مكامنها، علموا أنّهم لا يبلغون بجميع ما معهم ممّا قد استفرغهم واستغرق مجهودهم، وبكثير ما قد خوّلوه، قليلا ممّا يكون معه على البداهة والفجاءة، من غير تقدّم في طلبه، واختلاف إلى أهله."[13]

أداة الشرط: إذا.

جملة الشرط: رأت مكانه الشعراء...

جملة جواب الشرط: علموا أنّهم لا يبلغون....

يمكن أن نقرأ هذا التعبير كما يأتي: رسول الله -ص- ينطق عن بداهة دون تقدّم في الطلب، فأسلوبه لا يمكن أن يضاهيه حتّى كبار الخطباء والبلغاء ومن تعوّدوا

نظم المعاني وحسن التنسيق والتأليف، وهذه هي **النتيجة. والدليل (الحجّة)** هي أحاديث الرسول –ص–

في حد ذاتها إذ قال الجاحظ: إذا رأت مكانه الشعراء، وفهمته الخطباء...

الحجاج بني كما يأتي: **إذا** ← **الحجّة** ← **النتيجة.**

المثال الثاني: استعملت فيه لمّا التّي تفيد الظرفية الزمنية، وحين استعمال هذه الأداة يتخذّ الحجاج الشكل الآتي: لمّا← الحجّة أو الحجج ← النتيجة.

بمعنى أنّ الفكرة التي يريد الجاحظ تدعيمها، أو النتيجة التي يسعى إلى الوصول إليها تكون متأخّرة. يرى الجاحظ أنّ الخطابة أصبحت لها مرتبة أهم من مرتبة الشعر وذلك منذ العصر الأموي، ويفسر ذلك بقوله: "كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم... فلمّا كثر الشعراء واتّخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرّعوا إلى أعراض النّاس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"[14]

الحجّة على تقديم الخطيب على الشاعر هي كثرة الشعراء واتخاذهم الشعر مكسبة وتسرعهم إلى أعراض الناس. وقدّم الجاحظ هذا المقطع الحجاجي كما يأتي:

لمّا كثر الشعراء.... صار الخطيب عندهم فوق الشاعر

لمّا ← الحجج ← النتيجة.

3–أسلوب القصر: منه ما تمّ بالنفي والاستثناء، ومنه ما تم بأداة إنّما.

أ–ما تم بالنفي والاستثناء: من أمثلته:

المثال الأوّل: قال الجاحظ: "والصوت هو آلة اللّفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، **ولن** تكون حركات اللّسان لفظا، ولا كلاما موزونا ولا منثورا **إلاّ** بظهور الصوت، **ولا** تكون الحروف كلاما **إلاّ** بالتقطيع والتأليف"[15]

يبيّن الجاحظ أهميّة الصوت في التعبير عن المعاني، **وحجّته** على ذلك أنّ حركات اللّسان وحدها من المستحيل أن تكون كلاما لا موزونا ولا منثورا. واستعمل في تقديم هذه الحجّة أسلوبي قصر بالنفي والاستثناء.

المثال الثاني: قال الجاحظ: "... قال الله تبارك وتعالى: (فلمّا أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتّز كأنّها جان ولّى مدبرا ولم يعقّب يا موسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين). فبارك كما ترى على تلك الشجرة، وبارك في تلك العصا، **وإنّما** العصا جزء من الشجر."[16]

من مطاعن الشعوبية على العرب حملهم العصا، وقد أفرد الجاحظ بابا في البيان والتبيين أسماه باب العصا للرّد على الشعوبية في هذه المسألة، وقد راح يبيّن فضل العصا وأهميّتها ويروي فيها الأخبار، ومن بين ما احتجّ به في هذا المقام الكلام السّابق ليثبت أنّ العصا مباركة، ويستشهد على ذلك بهذه الآية الكريمة التي بارك الله فيها الشجرة بأن كلّم نبيّه موسى عليه السلام منها، وجعل الجاحظ الحجّة على أنّ العصا مباركة بأن قصرها على أنّها جزء من الشجر، والجزء مبارك بمباركة الكل وهو المعنى الضمني الذي لم يذكره الجاحظ هنا، وقدّم هذه الحجّة بعد إنّما، فالبناء كما يأتي:

النتيجة (العصا مباركة)← إنّما ← **الحجة** (العصا جزء من الشجر)←**المعنى الضمني**(الجزء مبارك بمباركة الكل).

4- استعمال أسلوب النفي: استعمل الجاحظ أسلوب النفي في تقديم الحجج، بمعنى أنّه كان يقدم حججه في صيغة نفي، وكان يهدف من وراء ذلك إلى التأكيد، ومن أمثلته ذلك:

المثال الأوّل: قال الجاحظ: "**ولم** أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح، ألفاظا مسخوطة، **ولا** معاني مدخولة، **ولا** طبعا رديئا، **ولا** قولا مستكرها. وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولّدين، وفي خطب البلديين المتكلّفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين..."[17]

قاد الجاحظ حملة شديدة ضد التكلّف والتصنّع، ويبرّر ذلك بما يلحق بالكلام من سماجة لذا نجد استكراهه لكلام المولّدين والبلديّين المتكلّفين واضحا في البيان والتبيين، بينما نجده يمجدّ كلام السلف، وكلام الأعراب الأقحاح، ويبرّر موقفه هذا

بحجج عدّة منها ما أورده في الكلام السابق، فلا لفظ مسخوط، ولا معنى مدخول، ولا طبع رديء، ولا قول مستكره في حديثهم، وقد قدّم هذه الحجج جميعا مؤكدة بالنفي.

المثال الثاني: قال الجاحظ بشأن الشعوبية: "ثم اعلم أنّك **لم** تر قوما قط أشقى من هذه الشعوبية، **ولا** أعدى على دينه، **ولا** أشدّ استهلاكا لعرضه، **ولا** أطول نصبا، **ولا** أقلّ غنما من أهل هذه النحلة "[18]

في هذا الكلام يؤكّد الجاحظ شقاء الشعوبية، وعداءها لدينها، ويرى ذلك سبب رميهم العرب بكلّ تلك التهم. وهنا أيضا نلاحظ استعماله لصيغة التفضيل (أشقى، أعدى، أشد أطول، أقل).

وقد يجمع الجاحظ بين هذه الأساليب جميعا في كلام واحد في مثل قوله: "فمن زعم أنّ البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللّكنة، والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كلّه بيانا. وكيف يكون ذلك كله بيانا؟ ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه، ونحن لا نفهم عنه إلاّ للنّقص الذي فينا. وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي، وإن كان هذا الاسم إنّما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم، فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيرا من حاجاته، ونفهم بضغاء السنّور كثيرا من إرادته وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع"[19]

ينفي الجاحظ في الكلام السابق أن يكون معنى البلاغة مجرّد فهم السامع كلام المتكلّم ويسعى إلى إثبات هذه الفكرة مستدلاّ على ذلك بقدرة الناس فهم كلام بعض من يلحن وحتّى قدرتهم على فهم بعض حاجات الحيوانات من خلال الأصوات التي تصدرها وينجم كلّ ذلك عن طول المخالطة والعشرة، وقد اعتمد في حجاجه هذا على الأساليب المختلفة كما يأتي:

الاستفهام البلاغي: وكيف يكون ذلك كلّه بيانا؟

أسلوب الشرط: ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه.

القصر بالنفي والاستثناء: لم نفهم عنه إلاّ للنقص الذي فينا.

القصر بإنّما: وإن كان هذا الاسم إنّما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم...

أسلوب النفي: وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي.

ونقرأ هذه الأساليب بالشكل الآتي: لا يمكن أن نفهم البلاغة على أنّها أن يفهم السامع معنى المتكلّم، والحجج على ذلك هي:

*لا يمكن أن يكون الخطأ والإغلاق والملحون بيانا. إذن البلاغة ليس معناها أن يفهم السامع معنى المتكلم.

*طول مخالطة السامع للعجم هو سبب فهمه الفاسد من الكلام، فهو قد اعتاد سماعه.

*نفهم عن العجمي بسبب النقص الذي فينا.

*أصحاب البيان لا يستدلّون بكلام الملحنين.

* يطلق على العجم والملحنين هذا الاسم (البيان) لأنّنا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم.

5-دور لام التعليل: وهي تقدم العلل أي الحجج، ومن أمثلتها:

المثال الأوّل: قال الجاحظ بشأن نهي الإسلام عن السجع في أوّل عهده، ثم زوال ذلك النهي فيما بعد: "... فوقع النهي في ذلك **لقرب** عهدهم بالجاهلية، و**لبقيتها** فيهم وفي صدور كثير منهم، فلمّا زالت العلّة زال التحريم"[20]

فالحجّة على النهي عن السجع في أوّل الإسلام هي قرب العهد من الجاهلية، وبقاء بعض مخلّفات الجاهلية في صدور الناس. وعندما زالت هذه الأسباب رفع النهي.

بني الحجاج في هذا المقطع القصير كما يأتي:

النتيجة (وقع النهي عن السجع في أوّل عهد الإسلام)←**لام التعليل**← **الحجّة**(قرب العهد من الجاهيلة وبقاء آثار الجاهلية في صدور الناس). **لمّا**← **الحجّة**(زالت العلة) ← **النتيجة** (زال التحريم).

المثال الثاني: قال الجاحظ: "كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب **لفرط** حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم..."[21]

الحجاج في هذا المقطع هو كما يأتي:

النتيجة (الشاعر كان مقدما على الخطيب في الجاهلية)← **لام التعليل** ← **الحجّة** (لحاجتهم إلى تقييد مآثرهم).

6- **استعمال الأداة أنّ:** قدّم الجاحظ بعض حججه مؤكدة بأنّ، بمعنى أنّ دور هذه الأداة تمثّل في تقديم الحجج، والنظام حينها يكون على الشكل:

النتيجة ← أنّ ← الحجة.

ومن أمثلة ذلك قول الجاحظ بشأن اختيار اللّفظ: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلاّ أن يكون المتكلّم أعرابيا، **فإنّ** الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما **أنّ** الناس أنفسهم في طبقات..."[22]

الحجاج في هذا المقطع القصير جاء بهذا الشكل:

النتيجة: لا ينبغي أن يكون اللّفظ وحشيا إلاّ إذا كان المتكلّم أعرابيّا ← **أنّ** ← **الحجّة** الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس.

النتيجة: كلام الناس طبقات ← **أنّ**← **الحجّة:** النّاس أنفسهم طبقات.

7- **استعمال الأداة لأنّ:** كثيرا ما يجمع الجاحظ بين لام التعليلّ، وقد استعمل الجاحظ هذه الأداة أيضا في تقديم الحجج، بمعنى أنّ الحجاج يكون بهذا الشكل:

النتيجة (الفكرة التي يدافع عنها الجاحظ)← لأنّ ← الحجّة أو الحجج:

المثال الأوّل: قال الجاحظ: "ثم اعلم -حفظك الله- أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ **لأنّ** المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"[23]، **فالنتيجة** هي: حكم المعاني يختلف عن حكم الألفاظ، و**الحجّة** هي أنّ المعاني لا حصر لها بينما الألفاظ فمحدودة العدد.

8- **دور قد في الحجاج:** استعملت قد في تقديم الحجج، وتكون النتيجة المراد الوصول إليها متقدّمة عنها، فالحجاج يتخذّ حينها الشكل الآتي:

النتيجة ← قد ← الحجّة أو الحجج

ومن أمثلة ذلك:

المثال الأوّل: قال الجاحظ: "ونحن ذاكرون على اسم الله وعونه، صدرا من دعاء الصالحين والسلف المتقدمين، ومن دعاء الأعراب، فقد أجمعوا على استحسان ذلك واستجادته.."[24]

فالحجّة على ذكر بعض دعاء الأعراب هي إجماع الناس على استجادة ذلك. فالحجاج جاء على الشكل الآتي:

نحن ذاكرون... فقد أجمعوا على...

النتيجة ← قد ← الحجة.

المثال الثاني: قال الجاحظ: " أمّا أنا فلم أر قط طريقة أمثل في البلاغة من الكتاب، فإنّهم **قد** التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا"[25].

الحجاج في هذا المثال هو كما يأتي:

النتيجة: لا توجد طريقة في البلاغة أحسن من طريقة الكتاب.

الحجّة: التماسهم من الألفاظ ما لم يكن متوعّرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا.

أمّا الأداة التي بها قدم الحجة فهي: **قد**.

10 - **دور لكنّ في الحجاج:** "لكنّ" أدّت دور مقدم للحجج، بمعنى أنّها تقدم معلومات على أنّها حجج، من أمثلة ذلك قول الجاحظ: "قال أبو الحسن: قال مولى زياد: أهدوا لنا همار وهش. قال : أيّ شيء تقول ويلك؟ قال: أهدوا لنا أيرا، يريد: أهدوا لنا عيرا. قال زياد: ويلك الأوّل خير.

وقال شاعر يذكر جارية له لكناء:

أكثر ما أسمع منها بالسّحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

والسّوأة السّوآء في ذكر القمر.

فزياد قد فهم عن مولاه، والشاعر قد فهم عن جاريته، و**لكنّهما** لم يفهما عنهما من جهة إفهامهما لهما، **ولكنّهما لمّا** طال مقامهما في الموضع الذي يكثر فيه سماعهما لهذا الضّرب، صارا يفهمان هذا الضّرب من الكلام."[26]

يسعى الجاحظ من خلال هذا الكلام إلى إثبات فكرة أنّ بطول البقاء والمعاشرة يمكن للإنسان أن يفهم كلام الملحنين، لأنّه تعوّد سماع ذلك اللّحن، وقد قدّم على ذلك مثالين: الأوّل كلام مولى زياد، والثاني: قول الشاعر عن جاريته اللّكناء. فالحجاج في هذا المقطع جاء كما يأتي:

زياد فهم عن مولاه، والشاعر عن جاريته، وهذا ليس من باب إفهامهما لهما **ولكنّ لمّا← الحجّة** طال مقامهما في الموضع الذي يكثر فيه هذا النوع من اللّحن← **النتيجة:** صارا يفهمان هذا النوع من الكلام.

الخاتمة: تتوفّر اللّغة العربيّة على طاقات هائلة في ميدان الحجاج، وقد عرف الجاحظ كيف يستغلّ هذه الثروة ويوظّفها في الدّفاع عن البيان العربي ودرء اتّهامات الشّعوبيّة.

وقد حاولت من خلال هذا المقال القصير لفت الانتباه إلى هذه النّاحيّة فبيّنت كيف وظّف الاستفهام البلاغي وأسلوب الشرط، وأسلوب النّفي وأسلوب القصر، وإنّ ولأنّ ولكنّ وقد وغيرها ممّا لم يسمح ضيق المقام بالوقوف عندها، وظّف كلّ هذه توظيفا تداوليا ساهم بشكل كبير في تحديد وجهة نصوصه الحجاجية وفي الوصول بالقارئ إلى درجة الاقتناع بصواب ما ذهب إليه.

الهوامش:

1-Adam (Jean-Michel), Les textes types et prototypes : Récit,description, – argumentation, explication et dialogue, Nathan.p104

2- Ibid.p103

3- Anscombre (Jean- claude)- Ducrot (Oswald), L'argumentation dans la langue, Pierre Margada Edition, Belgique.p9.

4-Ducrot (Oswald), Les échelles argumentatives, Les éditions de minuit, France, 1980.p15

5-Anscombre (Jean- claude)- Ducrot (Oswald), L'argumentation dans la langue, p8.

6- المبخوت شكري، نظرية الحجاج في اللّغة، من أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى يومنا، إشراف حمودي صمود. تونس: دت. كليّة الآداب، جامعة منوبة. ص.360

7- Plantin (Christian) , L'argumentation, Seuil, Paris, 1996.p68.

8-المبخوت شكري، نظرية الحجاج في اللّغة، ص.377

9-البنية الحجاجية في القرآن الكريم "سورة النمل نموذجا"، اللّغة والأدب، معهد اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد12.ص.333

10- نفسه، ص341.

11-- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج4، تح: عبد السلام هارون، ط2. مصر:1968. مكتبة الخانجي. ص.200

12-نفسه،ج3، ص31-32.

13-نفسه، ج4، ص.30

14- نفسه، ج3، ص.241

15- نفسه، ج1، ص.79

16- نفسه، ج3، ص.33

17- نفسه، ج2، ص.8

18-نفسه، ج3، ص.29

19- نفسه، ج1، ص162.

20- نفسه، ص.290

21- نفسه، ص.241

22- نفسه، ص.144

23-نفسه، ص.76

24- نفسه، ج3، ص.268

25-نفسه، ج1، ص.137

26- نفسه، ج1، ص165.